كلمة الدكتور مروان المحاسني

نائب رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

لو أراد المرء أن يجول بمخيِّلته ساعيًا إلى استذكار تضاعيف وتعاريجَ في مسار حياته الشخصية فهل بوسعه أن يُسقط أمورًا ومواقفَ لم تكن ذاتَ بال في وقتها، وإذا بها تتوضح له منارات ومنطلقاتٍ ترتّبت عليها أحداثٌ ومسالكُ متشعبةٌ ومنعطفاتٌ حاسمة أوصلته إلى المكانة التي تبوأها في مجتمعه؟

وإني إذ أقف اليوم معزِّيًا برجل كان ملء عيون الناس، كبيرًا في مقامه، عزيزًا في موقعه، بارزًا في خدماته، متميزًا في مشاركاته الممتدة على قطاعات متعددة في وطنه،

تَرَوني أتساءل، ما الذي أتوقف عنده من مآثره وما هي النواحي التي لا يجوز إغفالها؟ فالتأبين في نظري ليس محصورًا في تقريظٍ رتيب يُعيد إلى الذاكرة مراحلَ هامةً من حياة الفقيد بقدْر ما هو سعيٌ لكشف نواحٍ غير مشهورة من شخصيته يُستنار بها لفهم ما هو معروفٌ من مسار حياته.

أيها السيدات والسادة

لاشك بأنكم تشاركونني الرأي بأن المعروف لا يحتاج إلى تعريف، وأن شخصيةً كشخصية فقيدنا الدكتور شاكر الفحام لا يمكن اختزال أوصافها في سردٍ يتطرق إلى الوظائف والمناصب التي تقلدها.

هو الأستاذ، والمحقِّق، والوزير، والإداري، والسفير، فكيف لي أن أرجّح

وجهًا من وجوه شخصيته على وجوهها الأخرى، وكيف لي أن أجمع صفاته رئيسًا للجامعة، إلى مميزاته وزيرًا للتعليم العالي، لأصِلَ إلى مسلكه سفيرًا لبلاده في الجزائر؟

فلقد اكتملت معرفتي بالأستاذ الدكتور شاكر الفحام رحمه الله يوم استقبلني عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٩ وكان يومئذ نائبًا للرئيس. وكانت قد امتدت نيابته للرئيس سنواتٍ عديدةً معاضدًا ذلك الرجلَ المقدام والإداريَّ الصارم، أستاذي الكبير الدكتور حسني سبح الذي كان من أنبغ أساتذة كلية الطب.

ثم استمر الدكتور الفحام نائبًا للرئيس بعد رحيل الأستاذ حسني سبح عام ١٩٨٦ حتى انتخابه رئيسًا للمجمع عام ١٩٩٣. وكان إصراره على عدم تقلّد الرئاسة طيلة تلك السنوات مرتبطًا بالتزامه الإشرافَ على تَسيير الموسوعة العربية التي كان يؤمَل لها أن تسدّ فراغًا ثقافيًّا لا يستطيع المجمع بأوضاعه الراهنة أن يسدّه، إذ على الموسوعة أن تتطرق إلى مجالات علمية وثقافية وتاريخية تتجاوز مهام مجمع اللغة العربية. وقد كان تسلمه رئاسة المجمع عام ١٩٩٣ إيذانًا بعودته إلى التركيز على اللغة العربية، وهي التي اعتمدها محورًا لحياته.

فلقد نال الدكتور الفحام الإجازة في آداب اللغة العربية من جامعة القاهرة عام ١٩٤٦، وأتبعها بدراسات عليا أهّلته للحصول على شهادة الماجستير في الآداب عام ١٩٦٠، وانتهى إلى شهادة الدكتوراه في جامعة القاهرة عام ١٩٦٣.

ونحن إذ نتطرق إلى الدراسة الجامعية في النصف الأول من القرن الماضي

لابد لنا من العودة إلى الجو الفكري الذي كان يخيم على جامعات الوطن العربي في تلك الحقبة، جوٍ تعصف به تيارات ثقافية وأخرى سياسية محدثةً جدالاتٍ عميقةَ الأثر في استقطاب عقول الشباب وميولهم.

فقد عرفنا حينذاك نقاشات حادةً في جامعتنا السورية بين الملتزمين بالتيار القومي العربي، والمتعاطفين مع التيار السوري القومي، أو التيار الشيوعي، أو التيار الإسلامي.

فقد كانت باحات الجامعةِ الفسيحةِ مسرحًا لصراعات كلامية، وصداقات تنعقد وتنفكُّ حسب اتجاه الرياح العَقَديّة التي كانت تجتاح ذلك الصرح العلمي.

ولاشك بأن حالةً مماثلةً كانت تسود الجو الطلابي في مصر تنتهي إلى استقطاب الشباب ليلتحقوا بتيار من التيارات المتصارعة، وهكذا كان أن التحق الدكتور شاكر الفحام بحزب البعث العربي في سورية، مؤكِّدًا ميولَه وقناعاتِه القوميّةَ الأصيلة، وأتيح له أن يحضر المؤتمر التأسيسي للحزب عام ١٩٤٧ إلى جانب مجمعي آخر نعتز بوجوده هو الشاعر الكبير الأستاذ سليمان العيسى أطال الله في عمره.

ليس هذا مقامُ تقديم استعراضٍ للإنتاج الفكري الأصيل لفقيدنا، وهو الذي تطرّق إلى طيف واسع من المجالات الأدبية المختلفة في مقالاتٍ نُشر معظمها في مجلة المجمع، إلى جانب عمله الدؤوب في تحقيق عدد من النصوص التراثية المرموقة، ككتاب اللامات لأحمد بن فارس، إلى جانب تحقيق بعض التراجم البارزة الواردة في تاريخ دمشق لابن عساكر، وهي تخص أمثالَ أبي الفتح البستي وحميد بن ثور الهلالي والراعي النميري، كما أنه قام بتحقيق

مخطوطات هامة من المكتبة الظاهرية كالكوكبيات والمختار من شعر بشار.

وهنالك أمر يتوقف عنده المراجع لأعمال فقيدنا ألا وهو ميلُه إلى التراث الشعري، إذ اختص الفرزدقَ ذلك الشاعر الكبير موضوعًا لأطروحة الدكتوراه، وقام بدراسة متعمقة لشعر بشار بن برد.

ولعل ما نعرفه من خلق الدكتور الفحام، وتميُّزِه بدرجة عالية من اللطف ودماثةِ الطبع في تعامله مع المجتمع، وما كنا نراه في حياته اليومية من بُعدٍ عن الضجيج والصخب، أمورٌ نستطيع إرجاعَها إلى حِسٍّ شاعري خفيّ لم يبرزه في ممارسته، أو ربما حالت مشاغله دون تفتّحه.

لقد سُمي الدكتور شاكر الفحام سفيرًا لسورية في الجزائر عام ١٩٦٤ واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٦٨. وكانت الجمهورية الجزائرية حينئذ حديثةَ العهد باستقلالها بعد جهادٍ طويل ومرير، وبدأت حكومتها الوطنية تحاول التخلُّص من وطأة الثقافة الفرنسية التي أَلبست الشعبَ الجزائري ثوبًا قسريًّا من الفَرْنَسَة باعتباره جزءًا لا يتجزأ من القومية الفرنسية ممتدّةً إلى الشمال الإفريقي عبر المتوسط.

وكان أن أخذت اللغة العربية في الأفول حين فُرضت اللغة الفرنسية في جميع مراحل التدريس، وبدأ الناس يتخاطبون بالفرنسية في مختلف مناشط حياتهم اليومية، والأحرى بنا القول إن اللغة كانت فرنسيةً بمجملها وظاهرها، ولو أنها بقيت مبرقشة بكثير من الكلمات العربية الدارجة، كما برزت فيها تراكيبُ عربيةٌ قُلبت إلى فرنسيةٍ ركيكة. وهكذا قاربت الهوية العربية الجزائرية الضياعَ في مواجهة مدٍّ ثقافي قاهر.

لقد أدرك الدكتور الفحام أهمية وجوده في تلك المرحلة العصيبة في الجزائر،

فلم يكتفِ بأن يكون سفيرًا فحسب يتبادل الرسائل مع وزارة الخارجية في بلاده، بل أضحى بفضل ما اشتُهِر به من حبٍّ للعربية وتعمّق في دقائقها، المشاوَرَ المعتمد في شؤون حركة التعريب التي اتخذتها الحكومة الوطنية نبراسًا لعملها، وهدفًا يتطلب الإسراعَ إليه بخطواتٍ حثيثة لإخراج البلاد من هوة تجذّر الثقافة الدخيلة. فقد كان الدكتور الفحام سفير التعريب إلى الجمهورية الجزائرية.

وأُتيح لنا أن نعرف مدى ما توصل إليه هذا العمل الصامت الهادف من تأثيرٍ بالغ في المخططات الثقافية للحكومة الجزائرية حين وصلتُ مع زملائي أعضاءِ لجنة المعجمِ الطبي الموحد إلى الجزائر عام ١٩٦٩. فقد كانت اللجنة التي أنجزت الطبعة الأولى المقصورةَ على المقابلات العربية للمصطلحات الإنكليزية تضم أعضاءً من مصر والعراق إلى جانبنا أنا وزميلي الدكتور هيثم الخياط مُمثلَين عن سورية في مطلع الستينيات. ثم تأكدتْ ضرورة توسيع المعجم مماشاةً للتطورات العلمية المتسارعة التي تُغرق المجال المعرفي بسيلٍ دافقٍ من المصطلحات الجديدة، كما تبينت ضرورةُ إضافة المقابلات الفرنسية تسهيلاً لحركة التعريب في المغرب العربي، وهذا توسيعٌ يتطلب إضافةَ أعضاء يتعاملون باللغة الفرنسية في ممارستهم الطبية.

وحين عُقد اجتماعنا الأول للمشروع الجديد في مدينة الجزائر وانضم إلينا زملاؤنا من المغرب فوجئنا بحفاوةٍ غير معتادة تحيط بنا، إذ استُقبلنا استقبالاً رسميًّا وحُدّد لنا موعدٌ مع الرئيس هواري بومدين حضره مستشاره أحمد طالب الإبراهيمي للترحيب بنا مستَنَدًا لحركة التعريب في الجزائر.

وما ذلك إلا لاقتناع الحكومة الجزائرية أن تعريب العلوم وتعريب الطب

بخاصة، سيعود بفوائدَ جمةٍ على الشعب الجزائري الذي سوف يتعامل مع أطبائه بلغة يفهمها جميع أفراده. ومن المؤكد أن تأثير السفير السوري خلال السنوات الأربع التي قضاها قبل وصولنا، وهو الحامل لحماسة بلاده وإصرارها على تعريب العلوم في جميع المراحل الدراسية، كان بالغَ الوضوح في تشجيع الحكومة الجزائرية على المضي في المسار الموصل إلى التعريب اعتمادًا على التجربة السورية.

وهكذا بقينا نتردد على المغرب العربي طيلة السبعينيات لإتمام مشروع المعجم الطبي الموحد، بعد أن انضم إلى لجنتنا أستاذنا الكبير الدكتور حسني سبح، وبقينا نقطف ثمار الانفتاح المغاربي على اللغة العربية، الذي بدأ انطلاقُه من الجزائر.

ولعل ما لمسناه من أثرٍ لنشاط الدكتور الفحام في دفع عملية التعريب يُسجّل له مشاركةً فعّالة في مسار المغرب العربي نحو ترجيح التعريب على التغريب بما له من منزلقاتٍ مهلكة.

أيها السيدات والسادة

لقد كان حصادُ رئاسة الدكتور شاكر الفحام للمجمع يتضمن نشاطاتٍ ثقافيةً متعددة. منها المحاضرات التي استقطبت جمهورًا من المثقفين يشاركون في هَمِّ ما تواجهه اللغة العربية من تحديات، ومنها ندوات تسع بين عام ١٩٩٤ وعام ٢٠٠١ نوقشت فيها شؤون المصطلح في العلوم، وضرورةُ إيجاد منهجية موحدة لصوغ المصطلحات، وندوة عن اللغة العربية والإعلام، وخُصصت الندوة الأخيرة عام ٢٠٠١ للبحوث التي ترتبط بصناعة المعجم العربي.

ثم انتهج المجمع سُنّة أخرى اعتبارًا من عام ٢٠٠٢ وهي الدعوة إلى

مؤتمرات سنوية متخصصة تتمحور حول شؤون اللغة العربية من حيث تيسيرُ تعليم النحو، أو علاقةُ اللغة بالمجتمع، أو دورُ المعلوماتية في تطور اللغة العربية، وكان آخرَها المؤتمرُ السادس بعنوان لغة الطفل والواقع المعاصر عام ٢٠٠٧. وقد حازت هذه المؤتمرات شرف رعاية السيد الرئيس لأنها تصبُّ في بحر اهتمامات سيادته، وهو الذي دأبَ على تشجيع كلِّ ما يتعلق بالارتقاء باللغة العربية لتكون حاملةً لثقافة أصيلة. وقد صدرت عن هذه المؤتمرات وتلك الندوات توصيات وقرارات هامة نتطلع إلى تنفيذها وتعميم فائدتها في المستقبل القريب.

وَجدَّدت لجان المجمع في تلك المرحلة اهتمامَها بأمور دقيقة في مجالات خدمة اللغة العربية كدراسةٍ للأخطاء الشائعةِ على ألسنة العامة، وتثبيتٍ لقواعد الإملاء، وذلك إلى جانب تمسُّكِها بالكشف عن كنوز تراثنا وصولاً إلى تحقيقها ونشرها. وقد غلب على أعمال المجمع في السنوات الأخيرة اهتمامُه بتوحيد المصطلحات العلمية وهي تمثل العُمُد التي يستند إليها تدريسُ العلوم، وهي في الوقت ذاته مفاتيحُ الاطلاع على الحضارات العالمية المتطورة. والهدف من الإصرار على هذا التوحيد هو القضاءُ على الفوضى التي ظهرت في المصطلحات المعتمدة في التدريس، إذ أخذ الأساتذة يضعون المصطلحات ويغيّرون ما كان معتمدًا من قبلُ متأثرين بخلفياتهم الثقافية المتباينة من ألمانيةٍ وأمريكيةٍ وروسيةٍ وغيرها.

ولقد أَنجزتْ كلٌّ من لجنة الفيزياء ولجنة الكيمياء مهمتها في توحيد المصطلحات المدرجة في كتب التدريس الجامعي، ومازلنا نتابع العمل في مجالات العلوم الطبيعية كالحيوان والنبات والجيولوجيا، إضافةً إلى العلوم

الزراعية، وسوف تُرفع قوائم المصطلحات فور إتمامها إلى مجلس المجمع لإقرارها قبل إبلاغها وزارة التعليم العالي لاعتمادها من قِبَل الأساتذة في مؤلفاتهم.

وحين برزت في السنوات القليلة الماضية فكرةُ إيجاد معجمٍ تاريخي للغة العربية، أسوة بما هو موجود في اللغات الأوربية، لدراسة تطوّر اللغة وتتبّعِ التغيرات الدلالية التي تطرأ على كل لفظة في انتقال استعمالها من عصرٍ إلى عصر آخر، أبدى الدكتور الفحام رحمه الله حماسة كبيرة لهذا المشروع الذي يتولى إنجازَه اتحادُ المجامع العربية، وسُمي عضوًا في مجلس الأمناء المكلفِ إنجازَ المشروع، ومازال الأمر في بداياته تنظيمًا وتنفيذًا.

كما وقّع الدكتور الفحام اتفاقًا مع المجلس الدولي للغة الفرنسية لترجمة المعجم الطبي الموسوعي الفرنسي الصادر عن أكاديمية العلوم الطبية الفرنسية ونحن نتابع السعي لإيجاد التمويل اللازم لذلك المشروع المتميز.

ومن جهة أخرى مازال المجمع يتابع إنجاز مشروع إعادة تأهيل المكتبة الظاهرية بعد أن وُقّع عقد بين المجمع وحكومة كازاخستان لتمويل الترميم اللازم لذلك الجزء من المكتبة الظاهرية، وهو ضريح ابن كازاخستان السلطان الظاهر بيبرس. وسوف ننطلق بعد ذلك بمشروع يجمع المدرسة العادلية والمكتبة الظاهرية في مجمّع ثقافي يُعيد الحياة الفكرية إلى قلب مدينة دمشق. ثم إن المجمع قد قام في السنوات الأخيرة بتجديد اهتمامه بإغناء المكتبة العربية في مختلف المجالات التراثية والحديثة. ولابد من القول إن أهمَّ المؤلفات التي يلتزم المجمع تحقيقَها ونشرَها تاريخُ دمشق لابن عساكر، ذلك المؤلَّف النفيس في ثمانين مجلدًا، وقد وصلت إصدارات المجمع منه إلى المجلد السابع والستين ونأمل أن نصل إلى إتمامه في عام ٢٠٠٩.

على أن هذا المجهود المركّز لم يمنع المجمع من إصدار كتب تراثية هامة في السنوات الأخيرة ككتاب الأنواء للزجّاج، وكتاب الأسماء والأفعال والحروف للزبيدي، والدرّ النثير والعذب النمير للمالقي، والمقصور والممدود لابن ولاّد، وديوان أبي النجم العجلي، والبرق المتألق في محاسن جلّق، وكان آخرها معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب.

أيها السيدات والسادة

إن مجمعنا الذي قَرعتْ ساحتَه الأحزانُ في السنوات القليلة الماضية لَيذكر للدكتور شاكر الفحام إلى جانب إنجازاته المعروفة في خدمة العربية ذلك الطابعَ الخاص الذي أضفاه على جلسات المجلس، وهو حرصُه على حُسن استعمال الألفاظ فيما يرد إلى المجلس من تقاريرَ ومحاضرَ، وتأكيدُه سلامةَ اللغة بعيدًا عن التراكيب الجاهزة المبتذلة، وكان كثيرَ الاهتمام بالاطلاع على كل ما يصدر من كتب تخص علوم العربية، ويطلب تزويد مكتبة المجمع والمكتبة الظاهرية بكل كتاب يستحق الانضمام إلى كل منهما.

كما نذكر كيف كان باب الرئيس مفتوحًا دومًا لكل مراجع أو زائر دون استئذان موقوت، وهذا ما جعل العديد من طلابه القدامى يستمرون في تواصلهم معه ويقدمون إليه إنتاجهم الجديد، وهو يتولى مراجعة عدد غير قليل من المقالات قبل نشرها في مجلة المجمع.

وعندما بدت بوادرُ الانحراف في صحته وتكرر غيابه عن المجمع في الشهور الماضية عرفنا أن إطلاقَ تسميةِ مجمع الخالدين على مجمع اللغة العربية لا يحول دون تلاطم موج المنايا حول أعضائه.

إن الخلود لله وحدَه جلّ وعلا وأما الإنسان فخلوده في إنتاجه وفي

مشاركته هموم أمته وفي خِلفةٍ صالحة تفتخر بعمله.

فاسمحوا لي أن أتقدم إلى عائلة الفقيد باسم إخواني في مجمع اللغة العربية بأحرّ التعازي لفقد مجمعي بارز، كان شديد التعلق بالعربية، تقلّد رئاسة مجمع اللغة العربية سنوات طويلة وكان مسؤولاً عن مساراته.

كما أني أتقدم بالتعازي إلى محبِّي اللغة العربية جميعًا لفقدهم قامةً كبيرة في خدمة لغتنا العزيزة.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جناته والسلام